الصّندوق

قصة بقلم عبد الحكيم قاسم

... كانت كل يوم تصعد السلم الطيني درجة .. درجة . الدنيا وقت القيلولة وكلهم نائمون، حتى الدجاجة السوداء ، نكشت بمنقارها واظافرها حتى صنعت لنفسها مهدا صغيرا نامت فيه منفوشة الريش مغمضة العينين مفرجة المنقار لاهثة الانفاس يكاد تنفسها ان يسمع في صمت الدار .

وتصعد السلم درجة .. درجة ، جامعة اطراف ثوبها الاسود في قبضتها حتى لا يحف بالدرجات فيحدث صوتا ، وتصعد ينفرش قدمها الاسود المعروق على بسطة الدرجة اذ تدوس ويتقبض اذا ترفع تماما مثل مخلب الدجاجة السوداء .

وتصدم رأسها عود حطب مدلى من العريشة فيحدث الاصطدام ضجة مهولة ، وتتحرك رأسها يمنة ويسرة بسرعة وفمها مفتوح وهي تلهث كالدجاجة السوداء حينما يشتدون في مطاردتها ... ثم تخبو اصداء الضجة الكبيرة من رأسها ويهدأ الكير المتهدج تحت صدر ثوبها ، فتواصل سيرها ... بحذر اشد .

مسكينة انت يا مبروكة ... لماذا تخافين هكذا..؟ انك فقط ... ، نعم ، ولكنهم لا يتركونها في حالها . يسخرون منها لو رأوها ، يقطعون من جسدها قطعا صغيرة بالسكين ... ، مع انها حينما تفتح صندوقها تفتح بابا صغيرا على عالم جميل .

يقولون عنه باستهتار :

ـ صندوق مبروكة .

ولا يبالون ان يضعوا عليه حتى قفص الفراريج ، فترفع هي القفص عن صندوقها ، وتمسح بكفها ، بل وبطرف ثوبها ظهر الغطاء العزيز الذي كان يوما ما مصفحا بالصفيح البنفسجي الجميل .

... كان يوما ... ، ومات من حياتها مع انه كان اجمل يوم ... !

لكنهم يسخرون منها ، يسلخونها كنعجة ، بل احيانا تقول زوجة اخيها وهي تطوح بيدها في الهواء : ،

ـ انا عارفة يا ختي انتي بس بتعملي ايه بالحاجات دي ... ؟ محرماها على نفسك وعلى العيال ، ناوليها لي خلي العيال يهيصم ، وانتي ينوبك ثواب ...

وتكاد من الرعب ان تصرخ ، بل تموء كقطة زنقت ذيلها ضلفة باب .

ما لنا وتلك السيرة الان ... ؟ انهم نائمون ، حتى عفاريت الارض هاجعة ، وامامها ساعة تفتح فيها صندوقها وتروق نفسها من الهموم الكثيرة .

ركنت باب الصندوق على الحائط ، وتراقص خيال وجهها على الصفيح الفضي الذي يبطن غطاءه ، تنبصم سمرة وجهها على لمعة الصفيح ، ملامح قبيحة يتلاعب بها السطح اللامع غير المستوي ، ... لهم حق حينما يقولون عن قبحها ويقولون ... لهم حق ، ولكن هو كان يحب وجهها ... ، هو خير الرجال .

الصندوق مزدحم بالصرر كبيرة وصغيرة، قصاقيص، بنس ، كسرة مشط ، زجاجة زيت عطري فارغة ، قطع من شرائط حمراء وخضراء ، تأملت كنزها ، مصمصت شفتيها ، تناولت الزجاجة الفارغة ، شمتها ، تنهدت ... ، ثم تناولت قصقوصة موردة ونفخت عنها سفة تراب ارادت ان تغزو لونها .

هذه الصرة الكبيرة ، نفضتها مرتين ، وتحسست طراوتها ، ثم حلت العقدة عن صبح عقيقي ، ففي جوف الصرة كان الحرير الاحمر يستقبل الاشعة الوانية ويهدهدها على صدره الرجراج ثم يردها الى باطن غطاء الصندوق فيشع بلون كلون خدود البنات .

وتمسح يدها في ثوبها سبع مرات ، ثم تمدها الى الثوب فتأخذه اليها ، تطرحه على قدها الصدر على الصدر ، الحرير على القماش الاسود الخشن ..

يوم زفافها كانت مغمضة العينين فلم تر الألاء ثوبها الاحمر في ضوء الكلوب .

يومها ... ، وسرحت وملمس الثوب الناعم على يديها يرسل في كيانها نعومة حريرية .

رمت بناظريها الى هذه الدرجة من السلم ، ليلتها كان واقفا بجوارها ، همسته لا زالت في اذنها ، انفاسه اللاهثة الساخنة لا زالت على رقبتها :

ـ انا اللي اخترت القماش ... الحرير الاحمر..!

ثم هبط يجري خوف ان يراه احد متلبسا بمخاطبتها، نعم كان ذلك على هذه الدرجة من السلم ، ويومها دق قلبها كأن فيه زارا وتسندت على الحائط وهبطت الى وسط الدار حيث المصطبة .

لكن ذلك كان ثاني يوم ، حينما جلس اخوها على هذه المصطبة يدخن الجوزة ويحدث الجالسين عنه وعن عباطته :

ـ مسك الحرير الاحمر وكلبش عليه ، يا بني غالي ... ! لا ضروري تفصل منه ثوب العرس ، يا بني غالي ... ! ان شا الله ابيع قيراط ، يا بني غالي ... راسه

والف سيف ... جبناه .

عبيط ... ؟ اعبيط هو لانه يتزوجها .. ، الانه وضع كل هذا الفرح في قلبها ... ، الانه اشترى لها الحرير الاحمر ... ، انه احسن الرجال ، ودمعت لنفسها ...

... ودمعة الامس موصولة بدمعة اليوم — يا حبيب عيني — تتهادى ساخنة على الوجنات الذابلة حتى تستقر في اخدودين غائرين على جانبي الفم ، ما جئنا لهذا يا مبروكة ، ولكن مكتوب ذلك مكتوب ، عرس سابعه مأتم ، وعمر كليل طوبة ، وصندوق يحوي جهاز عروسة في ركن غرفة على السطوح .

وهذا هو المنديل اللبني ، وكانت قد سرت في غبشة المساء ترفعها الكيمان وتتلقاها الحفر الى دار « نفيسة الدمرداشية » .

— اشتغليه لي يا نفيسه ، غرزة حلوة كده دلع البنات ..

— يا ختي والنبي خسارة ... ، خسارة فيه الحاجات الحلوة دي ..

— خسارة فيه .. ؟ بلا كلام يا شيخة ، دا سيد الرجالة ..

قالت ذلك وهي تخبط نفيسة على وركها مستنكرة قولها واضعة في حجرها قرشين .

وهو امسكه من هذا الطرف ، وكان في يده خضاب وعليها وشم اسد يمسك سيفا ، وباليد الاخرى من هذا الطرف ، وعصب لها المنديل اللبني ، ورأت نفسها في المرآة ذات الرجلين المعلقة على الحائط ، وضحكت للعصبة المائلة تكاد تأكل حاجبها وخبطته على ذراعه :

— الناس تقول ايه .. ؟ يقولو عا وجه الشدة .. !

— اتعايقي يا بت على كيفك ، انا جوزك وعاوز لك العياقة ...

امها وهو فقط عصبا لها الشدة ودللاها هكذا ، وقد ماتا ... ، وبعد يومين ذهبت الى قبره وبيضت التربة بالجير وقالت للرجل « ارسم عليها اسدا يمسك سيفا » والرجل ضحك ثم رسم ، ... كان يحب هذه الصورة ، رسمها على ظهر يده وعلى جدار غرفة الفرح .

ليلتها كان ضوء اللمبة خفيضا للاخر ، تمددت الى جواره على المرتبة ، كانت فرحانة ، والاسد على الحائط المبيض ، التفت نحوها وضحك ، ... وهو — بحذر — مد يده ومس بطنها ، ثم جذبها بسرعة وهو مكسوف حيران ، احبته ... احبته كطفل يتوسد ساعدها ويدفن رأسه في صدرها ... وراح في النوم ... ، ليلتها بلا اسرار ، وعريسها نائم على صدرها ، والصبح يسند خده على صدر الشباك .

تذكرت كم كانت عبيطة حينما بكت من حديث البنات على المرارة قبيل الغروب ، تهامس باسرار هذه الليلة ، ولم يخصوها بشيء من الحديث . قلن لا .. ، لن تحظى بعريس ، فبكت وغمست وجهها في ماء الترعة ، ولم تزد دموعها الترعة شيئا ، وهي الان تضحك على نفسها ... ، ليلتها بلا اسرار .

والمكحلة ، الزجاجتان مغروزتان في وسادة من الحرير ، وعلاقة طويلة كم تدلت من المسمار المثبت في الجدار ، الزجاجتان واحدة للكحل الازرق الحامي والاخرى للاسود البارد ، ولكنها من يومه لم تتكحل ، من يوم ان مات .

قالوا قدم الشؤم قتلته ، ولكنها لم تصدق ، كانت تحبه كطفل ، كان ينام على صدرها كطفل .

وفي المساء جلس الرجال في المضيفة قليلا واجمين ، وقرأ الرجل الاعمى سورة قرآن ، ثم اطفأوا المصابيح وذهبوا الى دورهم ، وقالوا قتلته ... وهي تموت من اجله كل يوم ... ، كان ذلك من سنين . وعادت تنزل الدرجات بحذر شديد .

نعم ، كانت كل يوم تصعد السلم الطيني درجة درجة الى حيث صندوقها ، كنزها ، هو الان هناك ، في ركن الغرفة على السطوح .

وها هي الان عائدة الى الدار من كد اليوم في الحقل ، والقيلولة معقودة نارا ، والعهد مفروش على التراب ... كان ذلك من سنين والناس نسوه ، يوم الفرح والصباحية وخمسة ايام بعدها ... ثم مات .

اسرعت تجري ، صعدت السلم عدوا ، اصوات عيال وزؤاط وهيصة هناك في الغرفة على السطوح .

واحشاء الصندوق مبعثرة على ارض الغرفة ، سقط فكها ، تصلب لسانها في فمها ، اسرعت لهثاتها ، التهب ابطاها نارا فرفعت ذراعيها ... تماما كالدجاجة السوداء يرعبها عنف الطراد ...

زوجة اخيها تبعثر كلمات غير ذات جدوى وهي لا تسمع ...

لم تصرخ من الرعب ، لم تمؤ كقطة زنقت ذيلها ضلفة باب ، فقط استدارت لتنزل السلم ، رجعت الى الحقل وعادت تحيا حياتها ، عمر كليل طوبة ، دون صندوقها ، دون الساعات القليلة التي كانت تروق فيها نفسها من الهموم الكثيرة .. الكثيرة .

القاهرة — عبد الحكيم محمد قاسم

مكتبة عبدالقيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا احدث المطبوعات العربية ، وكذلك مجلة الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .